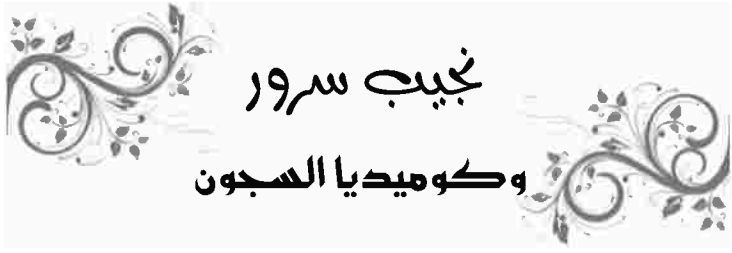

لأن الشعر أسرع تأثيراً فى الوجدان.. فهو يستطيع أن يحمل ويكثف مأساة الإنسان.. ويستطيع أن يبقى أجيالاً متعاقبة على ألسنة البشر دون أن يضيع.. ويستطيع أن يمثل فى كل زمان إسقاطاُ على الواقع فتحسبه منتسباً لهذا الواقع بالرغم من مرور سنوات أو قرون على وجوده..

من منا مثلاً لا يتعجب لقول المتنبي:

وكم ذا بمصر من المضحكات

ولكنه ضحك كالبكا

أو يقول:

وإذا كانت النفوس كبارا

تعبت فى مرادها الأجسام

أو يقول:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدوا له ما من صداقته ودُّ

أو نسمع طرفة بن العبد يقول:

وظلـم ذوى القربـى أشـد مـضاضة

على الـنفس مـن وقـع الحـسام المهنـد

أو نسمع أحمد شوقى يقول:

وللحريـــــة الحمـــــراء بـــــاب

بكـــل يـــد مـــضرّجه يُـــدقُّ

ونستطيع أن نقرأ ديوان الشعر العربي عبر القرون لندرك هـذه الحقيقـة الخالدة: أن الشعر لا يموت.. ولا تموت رموزه ومعانيه.. لكنه يظل شـامخاً فى قلوب البشر لأنه يقدم لهم خلاصة التجربة.. وعرق الذهب الكـامن فى الإبداع الإنساني.

ونحن الآن نقف مع شاعر آمن بقضية الشعر وبقدرتـه عـلى التـأثير فى قلـوب المتلقـين.. فأبـدع كلماتـه الـشعرية: قـصائد ورباعيـات وأعـمالاً مسرحية.. عرفت طريقها إلى الوجدان.. لكنها مهدت له طريقه إلى السجن والتشريد.

وشاعرنا هو محمد نجيب محمد هجرس الذى اشتهر بنجيب سرور وقد ولد بقرية (أخطاب) مركز أجا دقهلية فى 1 يونية 1932 وتوفي فى دمنهـور (24أكتوبر1978).

لقبه بعض النقاد بشاعر العقل.. فقد كان عاشقاً لأبي العـلاء المعـرى.. قرأه قراءة دارس متعقل فاكتشف عظمته وقدرته على معايشة كـل عـصر.. وكثيرا ما ذكره فى أشعاره.. وعارضه فى بعض أبياته..

وقرية (أخطاب) هى إحدى القرى التى كانت تابعة للإقطاع.. يعمل أهلها أجراء لدى (السيد) المالك لهذه الأرض.. أما هؤلاء الأهل فكانوا يعيشون على تربية بعض الحيوانات والدواجن بعيداً عن رعاية الحكومة.. ولكنهم كانوا حريصين على تعليم أولادهم فى المدارس الحكومية المجانية.

ويدخل نجيب هذه المدارس وتظهر موهبته التى كانت تلتقط مظاهر الحياة من حوله.. فالإقطاعي الكبير يستعبد البشر هو وأعوانه.. والناس البسطاء فقراء لا حول لهم ولا قوة.

ويذكر الفتى وهو صغير أن جاء بيتهم خفير العمدة يطلب أباه ويظن الفتى أن أباه من المقربين.. فالعمدة (الإله) أرسل فى طلبه فيذهب معه الفتى ليسعد بهذا اللقاء.. لكن أباه حينما وصل إلى العمدة (الإله).. خلع العمدة حذائه وانهال عليه ضرباً وصفعاً.

لم يغب هذا المشهد عن ذاكرة نجيب.. وربما كان فاتحة مواقفه ـ فيما بعد ـ فى مواجهة الظلم والفساد والدكتاتورية بكل ألوانها وأشكالها.

ويعبر الشاعر عن هذا الموقف فى قصيدته (الحذاء) بقوله:

وذاك المساء أتانا الخفير

ونادى أبي..

بأمر الإله.. ولبى أبي

وأبهجني أن يقال الإله

تنازل حتى ليدعو أبي

تبعت خطاه بخطو الإوز

فخورا أتيه من الكبرياء

أليس كليم الإله أبي..

كموسى.. وإن لم يجئه الخفير

ويواصل الشاعر حكايته حتى يصل أبوه ويلقي السلام على مجلس العمدة.. فلم يرد أحد سلامه..

رأيت الإله يقوم فيخلع ذاك الحذاء

وينهال كالسيل فوق أبي

ويتساءل الفتى ساعتها فى حسرة وحزن:

أهذا أبي..

وكم كنت أختال بين الصغار

بأن أبى فارع كالملك

أيغدو لعيني بهذا القصر

ثم يقول فى نهاية القصيدة:

كرهت الإله

وأصبح كل إله لدى بغيض الصعر

تعلمت من يومها ثورتي

ورحت أسير مع القافلة

على دربها المدلهم الطويل

لنلقي الصباح

لنلقي الصباح

يحمل الشاعر فى ذاكرته هذه الحادثة الرهيبة.. ويدخل كلية الحقوق.. لكنه يتركها ليلتحق بالمعهد العالي للفنون المسرحية ربما لأنه كان يميل إلى فضح أساليب الفساد والإقطاع فى أعماله الإبداعية.. فكان يريد أن يتقن صناعته.. إتقانا جيدا.

وينتمي نجيب سرور إلى جماعة (حدتو الشيوعية) ويسافر فى بعثة إلى الاتحاد السوفيتي لدراسة الإخراج المسرحي (1958 ـ 1963) لتتوطد علاقته بالماركسية.

ولم يكن وجوده فى موسكو يبعده عن أحداث وطنه.. لكنه كان دائم المعرفة بما يجرى.. فكتب رسائل ودراسات وقصائد نشرت فى مجلات لبنانية يتناول فيها الأوضاع السياسية والاجتماعية فى الوطن العربي.

ويتحول نجيب سرور إلى معارض سياسي.. ويهرب من موسكو إلى المجر.. ثم يعود إلى مصر فى عام 1964.

وتتنبه لوجوده المخابرات المصرية.. فيقبض عليه ويدخل السجن ليلقي ألواناً من العذاب لا يطيقها بشر.

ثم يخرج من السجن مشرداً فى السبعينيات حيث فصل من عمله فى أكاديمية الفنون.. لانتقاده حكم السادات انتقاداً لاذعاً فاضحاً أساليب السلطة فى قمع الحريات والتسلط مع المثقفين..

وها هى ذى السلطة تنجح فى إلصاق التهم له.. وإدخاله مستشفى الدكتور النبوي المهندس للأمراض العقلية والنفسية.. ليخرج منها محطماً واهياً.. ويموت فى دمنهور فى 24 أكتوبر 1987.

وأعمال نجيب سرور كثيرة أهمها:

دواوين: التراجيديا الإنسانية ـ لزوم ما يلزم ـ برتوكولات حكماء ريش ـ رباعيات.

أما أعماله المسرحية فمنها:

ياسين وبهية ـ يا ليل يا قمر ـ قولوا لعين الشمس ـ يا بهية وخبريني ـ الحكم بعد المداولة ـ ملك الشحاتين ـ البيرق الأبيض ـ منين أجيب ناس.

ويذكر أنه كتب عام 1971 مسرحية (الذباب الأزرق) عن تلك المجازر التى قام بها الملك حسين ضد الفلسطينيين.. وتدخلت المخابرات الأردنية لإيقاف عرض المسرحية.. فتوقف العرض.. وصار نجيب لقمة سائغة للأمن المصري.

وهكذا لم تلن عزيمة الشاعر.. ولم تتوقف شجاعته فى نقد الأوضاع السياسية.. حتى إن السجن والتشريد كانا معتادين له فى كل حين.

وها هو يبدأ رحلته هذه بجسارة وقوة فى قصيدته (لهذى الجموع) بقوله:

أ أسمع وقع خطى الطاغية

يدب على جثث الساقطين

ويطحن بالنعل كل الجباه

ثم يقول:

رأيت الدماء.. دماء المساكين فى قريتي

يعيشون كالدود فى مقبرة

رأيت الشقاء

يلف بأذرعه الهاصرة

جسوم الملايين من أمتي

رأيت الجفاف

رأيت سراب الحياة الشحيح

تصوره لهفة الظامئين

وهكذا يظل يرسم بقلمه هذه الصورة الكئيبة من الظلم والفقر والفساد.. ويحث الجموع على التمرد والثورة..

ومرة أخرى يصور الجوع والفاقة فى قصيدته (المخاض) فيقول:

يا إخوتي

والجوع فى طول الطريق

أفعى لها مليون ناب

والأعين الحمرا تعاني فى غموض

شيئا كآلام المخاض

وذكرت أمي.. إنها ماتت بآلام المخاض

يا قصة الموت الذى يلد الحياة

يا إخوتي.. إنى أري فى داخل الموت الحياة

فالعطر فى هذا الكفن

والنور فى هذا الظلام

والبنت كالأطفال فى بطن الجليد

والنار فى جوف الرماد

هو إذن لا يفقد الأمل.. وإن طال الزمن.. فالمخاض حادث لا محالة.. ومن ثم فالشاعر هنا يلتقط من أعماق الظلمة بصيص النور.. ومن داخل الكفن يشم العطر.. ومن داخل الرماد.. تتوهج النار التى تطهر النفس وهكذا.

وكان نجيب يعيش أحداث الأحرار فى كل مكان.. ففي مساء الخميس 8 مارس عام 1958 كتب نجيب قصيدته (الجمعة الحزينة) وكان قد حدد يوم الجمعة التالي لإعدام المجاهدة الجزائرية (جميلة بوحريد) ولقد انتصرت الإنسانية على هذا اليوم فانتصرت بذلك على أحد أيام الجمع التى تنتظرها فى الطريق إلى حياة أفضل، وفى هذه القصيدة يقول:

غفرانك فالعين بصيرة

وذراعي يا أخت قصيرة

والكف بها كلمات عزاء

لا تجدي فى يوم الجمعة

غفرانك.. إنى لا أملك إلا شعرى

وعذابا ينهش فى صدري

والحمى.. والحزن الضارى

وسعارى فى يوم الجمعة

****

أنا أعلم أن الموت مخيف

أو ترتعدين

أو ينضج جسمك ماء الرعب

ويسوخ إلى القدمين القلب

****

اللعنة يا يوم الجمعة

اللعنة إن لم تسقط من أيام الدهر

والويل لغيلان فرنسا.. للرومان

لو صلبت بنت الإنسان

يوم الجمعة

كان يعيش إذن مأساة الوطن العربي من أجل التحرر بالدماء والتضحية.

وكان نجيب لاذع السخرية حينما يتناول هؤلاء المنافقين أو الخونة أو الموالين للسلطة.. فمن ذلك ما جاء فى ديوانه (لزوم ما يلزم):

يقولون هذا زمان يهوذا

فيا ليتهم صدقونا الخبر

يهوذا أصاخ لصوت الضمير

وأسرع من عاره فانتحر

وأنت.. متى يا ترى تستفيق

متى تنتحر

أو يقول:

الألفاظ لها ميزان

ثمة لفظ قد يكسبك العالم.. لكن

تخسر نفسك

ثمة لفظ قد يفقدك العالم.. لكن

تكسب نفسك

زن ألفاظك تعرف نفسك

ويذكرنا بما كتبه صلاح عبد الصبور عن الألفاظ..

ويواصل نجيب إبداعاته ورؤاه فى هذا الديوان فيقول:

تنفى من المنفى وتبدأ من جديد

هذا مصيرك يا شريد

أن تطرق الأبواب من باب لباب

فتردك الأعتاب للأرض الخراب

كلباً يضيع مع الكلاب

أو يقول مرحباً بالسجن المظلم:

يا أيها الظلام مرحبا.. يا أيها الظلام

يا دربي الذى بلا اتجاه

يا أوسع الدروب للإنسان

لم تفقدوا الضياء يا عميان

فيها دروب المبصرين زيف

وها هو يذكر قريته أخطاب فيقول:

قولوا لأخطاب الحبيبة:

لم يلق فى طول الطريق سوى الأفاعى والضفادع

حتى الذين يولولون على الضفادع

فرسان هذا العصر هم بعض الأفاعى

قولوا لأخطاب الحبيبة:

لا شئ غير الظلمة السوداء

حتى تحت أقدام المنار

ونختتم هذه النماذج بما كتبه نجيب سرور فى ديوان (برتوكولات حكماء ريش):

الحق أقول لكم

لا حق لحي إن ضاعت

فى الأرض حقوق الأموات

لا حق لميْت إن يُهتك

عرضُ الكلمات

وإذا كان عذاب الموتى أصبح سلعة

أو أحجية أو أيقونة

أو إعلانا أو نيشانا

فعلى العصر اللعنة

يلعن نجيب سرور عصره لأنه عصر الزيف والخداع.. والظلام والفساد.. حاول بشعره أن يغيّره وأن يلونه بألوان الحب والصدق والنور.. لكنه عجز عن ذلك كما عجز غيره كثيرون.. ففضل أن يعتزل الحياة ممعنا فى التشرد وغياب العقل.. فقد وجد أن العقل ليس له مكان فى عصره والصدق ليس له مكان.. ولهذا كان لابد أن يودع الحياة غير نادم على كل كلمة صدق أبدعها وعبّر بها على كل ما يحسه الناس ليل نهار من آلام وأحزان.